==

من بين الصحارى التي سافرتُ عبرها، ومن بين الشعوب التي جالستها، لم تُثِر اهتمامي أمة كما أثارته جزيرة العرب. هناك، حيث تتبدّد السُّحب ولا يبقى إلا الفراغ، يسكن شعب يحمل بين ضلوعه نارًا خامدة لا تنطفئ، ولا تشتعل إلا إذا اقتربتَ أكثر مما ينبغي ,لم تكن جزيرة العرب في نظري مجرد صحراء، بل كانت رقعة من التاريخ الحي، تمشي على الأرض. فيها قبائل لا تزال تتحدث وكأنها خرجت من بطون المعلقات، وبيوت لا تزال تُبنى على الرمل وتُهدم بالرأي.

زرتُ نجد حين كانت مملكة في طور التكوين، والتقيتُ رجالاً لا يشبهون إلا أنفسهم؛ بعضهم أمراء يرسمون حدوداً بحد السيف، وبعضهم بدو لا يرون للحياة قيمة إلا حين تمُتحن في معركة أو رحلة بلا خارطة , في هذه الصفحات، لا أزعم أنني أروي "الحقيقة الكاملة" عن العرب، بل أنقل انطباعات رجل غريب دخل أرضًا لا تشبه وطنه، وعاد منها محمّلاً بأسئلة أكثر من الأجوبة , لم أكتب هذا الكتاب للأكاديميين وحدهم، بل لكل من يفتنه الغموض، ويأسره الحديث عن أرضٍ قيل عنها يومًا إنها 'الجزيرة التي لا يدخلها إلا المجانين، أو الرسل، أو الغزاة.

حين دُعيت لأول مرة لعبور الرمال الكبرى، لم أكن أعلم أنني على وشك أن أفقد التصورات المسبقة التي رافقتني منذ شبابي عن هذا الجزء من العالم. لقد دخلت الجزيرة العربية كما يدخل الإنسان إلى أسطورة، لا على ظهر حصانٍ أبيض، بل على ظهرِ جملٍ عنيد، تقوده رغبة بريطانية في المعرفة، وتمرده روحٌ لم تستطع المؤسسة أن تُخضعها تمامًا ، رأيت الرمال تأكل المدن، والريح تطفئ نار الحروب، وتُشعل نار الحكايات. وفي مجالس القهوة، حيث لا شيء سوى الحطب والكلمات، أدركت أن ما نعتبره "بدائية"، قد يكون حكمة أقدم من حضارتنا.
العرب لا يُشبهون بعضهم، وإن تشابهت ملامحهم للعين السطحية.
فالحجازي ليس النجدي، والنجدي لا يفكر كما يفكر البدوي الحر في رمال الشمال ، بعضهم يَحكم باسمه، وبعضهم لا يملك إلا اسمه، ولكنه يحكم بما ترويه عنه الرمال.

في هذا الكتاب، حاولتُ أن أجمع ما استطعت من مشاهدات، حكايات، وأصوات، بعضها التقطته أذني، وبعضها تسلل إلى روحي دون أن أشعر.
ستقرأون عن أمراء، وعن صعاليك، عن أئمة في العلم، وعن قطاع طرق، عن رجالٍ أحرقهم الدين، وآخرين أحرقتهم السياسة ، ولكن بين كل هؤلاء... كان هناك دائمًا أولئك الذين لا يمُكن تصنيفهم، كأنهم خرجوا من خارج التاريخ، أو يعيشون على هامشه ، هؤلاء هم من جذبوني أكثر من غيرهم.

==

الولاء عند العرب ليس مجرد علاقة سياسية، بل هو امتداد للهوية، وجزء لا يتجزأ من تركيبة النفس ، في المدن الأوروبية، الولاء يُمنح للدولة، لمفهوم القانون، أو لفكرة الأمة. أما في جزيرة العرب، فهو يندمج مع الدم، والشرف، والدين، والتاريخ، وشيء آخر لا يمكن ترجمته بدقة، لكنه قائمٌ في القلوب ، منذ لحظة وصولي إلى الرمال الشرقية لنجد، أدركتُ أنني أمام مجتمع لا يُدار من الأعلى إلى الأسفل، بل بالعكس: من القلب إلى الخارج ، الشيخ يُطاع لأنه يُجسّد شيئًا داخليًا لدَى أتباعه .. شيئًا يسبق الدولة، ويسبق حتى الدين أحيانًا. لم أرَ أحدًا ينظر إلى الدولة بوصفها كيانًا مفروضًا فوق القبيلة؛ بل هي، في أحسن حالاتها، امتدادٌ لقبيلةٍ ما ، في المجالس، كثيراً ما كنت أسمع الرجال يفتتحون كلامهم بعبارة: "أنا من تلك القبيله ، وولائي لهم"، دونً أن يُسألوا عن ذلك ، وكأنّ التصريح بالولاء شرطٌ للحديث، أو نوع من جواز السفر غير المكتوب.

هناك من كان ولاؤه لأميرٍ محلي، وهناك من جعل ولاءه لله ورسوله وحده، وهناك من جعل نفسه هو الدولة، القانون، والدين معًا ، لم تكُن هذه التناقضات مدعاة للاضطراب، بل كانت - بشكلٍ ما - جزءًا من النظام الطبيعي للبادية ، وفي أثناء ترحالي بين القبائل، بدأت ألاحظ أن الشخصيات الأكثر تأثيراً في مجريات الأحداث ليست بالضرورة تلك التي تحمل الألقاب، أو تحكم المدن، بل أحيانًا تلك التي تُحرك الأفكار، أو تُلهم الخوف، أو تنشر الشك.

فهناك دائمًا من يمشي خارج الاصطفاف، من يرفض الولاء، أو يُغيّره حسب قناعاته الشخصية ، وهؤلاء، رغم قلّتهم، هم من يصنعون القلق في الصحراء ، لا لأنهم يُهددون الاستقرار، بل لأنهم يُذكّرون الجميع أن الولاء ليس فطرة، بل اختيار.

في هذا الكتاب، سيجد القارئ أنفسًا متضادة:
دعاة يقاتلون تحت راية الدين، وأمراء يقاتلون باسم الدولة، وبدوًا لا يقاتلون إلا من أجل ما يرونه حقًا ، ستقرأ عن رجالٍ باعوا كل شيء ليُصبحوا جزءًا من مشروع أكبر، وعن آخرين رفضوا البيع... وتركوا التاريخ يبحث عنهم ، ومن هنا جاءت رغبتي أن أبدأ بالفصل الأول بعنوان "شخصيات ذات ولاء" ، فقبل أن نحدّق في ملامح التمرّد، علينا أن نفهم لماذا يختار بعضهم أن ينتمي، ولماذا يُضحّي بكل شيء من أجل رغبته بالتفرد .

لقد تساءلت كثيراً، وأنا أتنقّل بين رمال الجزيرة ومجالسها، بين آبارها المهجورة وقلوب رجالها، ما الذي يجعل بعض الأشخاص يتركون في النفس أثرًا لا يُمحى؟ ليس المال، ولا النسب، ولا حتى البطولات وحدها ، بل هو ذلك التناقض المدهش بين بساطة مظهرهم وغموض دوافعهم، بين انتمائهم لقبائل شديدة التقاليد، وسلوكهم الذي يخرقها أحيانًا.

وعليه، فإن هذا الكتاب لا يسعى لكتابة "تاريخ الجزيرة العربية" ولا لتحليل بنيانها السياسي أو العقائدي ، بل هو محاولة شخصية لعرض أكثر الشخصيات التي التقيتها، أو سمعت عنها، أو تتبعتها من خلال الروايات الشفهية والوثائق المهملة شخصيات أثارت اهتمامي، واستفزّت أسئلتي، ودفعتني لأفكر في طبيعة الإنسان العربي حين يُترك لخياره الحر ، اخترتُ أن أتناول في هذا العمل رجالاً ونساءً، أمراءً وفقراء، دعاةً ومتمرّدين، ممن لا يُمكن تصنيفهم بسهولة ، بعضهم وُصف بالقديس، وآخرون بالشيطان ، وهناك من ظلّ صامتًا أمام شهرتهم المتزايدة، كأنهم لا يريدون لأسمائهم أن تخرج من حدود الرمال ، ما جمعهم في هذا الكتاب ليس مكانتهم ولا أفعالهم، بل الدهشة التي تركوها في نفسي، والانطباع العميق الذي جعلني لا أستطيع نسيانهم حتى بعد مغادرتي ديارهم ، لا أدّعي الحياد، ولا أزعم الموضوعية، هذه صفحات يكتبها رجل غريب وجد في هذه الأرض شيئًا يشبهه .. شيئًا لا يهدأ، لا يستقر، ويُقاوم التصنيف.

مقدمة الفصل

حين نتحدث عن "الولاء" في سياق الجزيرة العربية، فنحن لا نقصد ذلك المعنى الغربي الحديث المرتبط بجواز السفر، أو المؤسسات، أو حتى الضرائب والانتخابات ، بل نحن أمام مفهومٍ متجذّر، معقّد، يخرج من عمق التاريخ ويخترق العرف والدين والعاطفة.

الولاء هنا، في أبسط حالاته، قد يكون لشيخ القبيلة ، لا لأنه يملك السلطة، بل لأنه "صاحب دم"، أو لأنه قاتل معك ذات يوم. وقد يكون الولاء لأمير على رأس دولة ناشئة، تتّسع تحت ظله الخيام، وتضيق إن اشتدّ سيفه. وقد يكون الولاء لجماعة دينية، يُؤمن صاحبها أنها تمثّل طريق النجاة في عالم تُهدده فتنة السلطة والسيف معًا ،وهناك أيضًا أولئك الذين ينتمون لرمزٍ غير ملموس: لفكرة، لنصّ مقدّس، أو لرؤية لا يراها إلا هم. هؤلاء يزرعون ولاءهم في ما هو أكبر من القبيلة والدولة، وغالبًا ما يتحوّلون إلى صواريخ طائشة، تُخيف الأعداء وتُقلق الحلفاء.

لا يمُكن فهم حركة الجزيرة، أو ما جرى فيها من توازنات واضطرابات، دون النظر إلى شبكة الولاءات المتقاطعة بين قبائلها وأمرائها، ودُعاتها وتجّارها، بل وحتى قطاع طرقها ، إذ أن كل فعل - صغيراً كان أو كبيراً - غالبًا ما وُلد من رحم ولاءٍ ما ،في هذا الفصل، سأعرض مجموعة من الشخصيات التي التقيتها، أو قرأت عنها، أو سمعت حكاياتها في المجالس ، كلها تشترك في سمةٍ واحدة: أنها كانت واضحة في ولائها، ومخلصة لما رأت أنه يستحق التضحية.
سواء كنتُ متفقًا مع ما آمنت به هذه الشخصيات أو معارضًا، فإن هدفي من عرضها ليس إصدار الأحكام، بل سبر هذا الإيقاع الغريب الذي يجعل العربي على استعداد أن يُقاتل، ويهُجّر، ويُقتل، من أجل اسمٍ... أو راية... أو قسم .

==

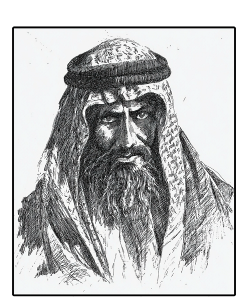
عبدُالله بن جلوي آل سعود

لم يكن عبدُالله بن جلوي رجلاً من رجال الظلّ فحسب، بل كان - في لحظات مفصلية - ظلّ الدولة نفسها قبل أن تولد ، في مرحلة لم يكن لآل سعود فيها من الأرض شبراً، حين كان عبدالعزيز شابًا مُبعدًا في الكويت، لم يكن الولاء له مشروعًا رابحًا، بل مخاطرة مميتة. ومع ذلك، اختار عبدالله بن جلوي أن يكون عينه في الرياض، وأذنه في المجالس، وخنجره إذا جاء وقت الخنجر ، على مدى سنوات، لعب عبدالله دورًا مخفيًا داخل المدينة التي احتلها خصوم آل سعود — الرياض، والتي كانت آنذاك تحت سيطرة أميرٍ عيّنه ابن رشيد يُدعى عجلان العجلان.
عبدُالله لم يكن زعيمًا، ولا شيخًا معروفًا في الحي، بل كان يتحرّك كظلٍ في النهار، وكسؤالٍ بلا جواب في الليل ،يراقب، يُسجّل، ويبعث بالرسائل مشيًا أو خفية إلى عبدالعزيز في الكويت، يخبره بأسماء الحراس، وأوقات النوم، ومسارات الدوريات، وحالات الشك.

لم يكن عبدُالله جاسوسًا بالمعنى الغربي للكلمة — لم يتلقَّ راتبًا، ولا كان يدير شبكة،
بل كان، ببساطة، رجلًا اختار أن يُقدّم عنقه لأجل رجلٍ يؤمن به ، ثم جاء يوم "التحرير" — فجر الخامس من شوال عام 1319 هجريًا.
دخل عبدالعزيز ومعه رجاله إلى الرياض، بعد رحلة طويلة من الكويت عبر الصحراء.
وبينما اشتبك البقية مع الحرس في أزقة ضيقة، كان عبدُالله بن جلوي يعرف بالضبط أين يكون، وكيف يتحرّك ، اقتحم قصر المصمك، وقتل الأمير عجلان بنفسه، في واحدة من أكثر لحظات الحسم درامية في تاريخ الجزيرة الحديث ، بعد القتل، صعد عبدُالله إلى أعلى القصر، ونظر إلى الساحة التي كان يملؤها الصمت والذهول، ثم صرخ بصوتٍ سمعته المدينة بأسرها:

"الحكم لله، ثم لعبدالعزيز!"

لم يقل "الحكم لي"، ولم يرفع رايةً باسمه، بل ألقى بولائه على الملأ كمن يُعلن بيعته للريح قبل أن تهب ، تلك اللحظة لم تكن مجرد بداية لحقبة سياسية، بل كانت إعلانًا واضحًا عن شخصية لا ترى في القيادة مشروعًا شخصيًا، بل واجبًا تنفذه بحد السيف ، وربما لهذا، لم يكن عبدالله بن جلويً مجرد رجل قتال، بل تجسيدًا نادرًا للولاء الحي.


رسمه لـ عبدالله بن جلوي

... وربما لهذا، لم يكن عبدالله بن جلوي مجرد رجل قتال، بل تجسيدًا نادرًا للولاء الحي ، ومن بين عشرات الأسماء التي مرّت بي وأنا أدرس هذه البقعة المتشابكة من الجزيرة، لم أجد في شخصية عبدالله ما يثير الدهشة فحسب، بل أيضًا ما يستفزّ الاعتقاد السائد في ذهني كغربي:
أن الولاء لا يُشترى ولا يُورّث، بل يُغرس في الصدر كالإيمان.

في عالم تحكمه المصالح وتقوده الأنانية، بدا لي عبدالله بن جلوي كما لو كان بقايا زمنٍ آخر ، زمن يختار فيه الرجل أن يموت لأجل فكرة، أو يعيش ليخدم رجلاً لم يكن حينها يملك من السلطة إلا طموحه ، لقد قُدر لي أن أرى كثيراً من الرجال في رحلاتي عبر الجزيرة،
لكن قليلاً منهم من حملوا تلك العينين: عينان لا تبحثان عن المجد لنفسهما، بل لأحدٍ غيرهما ، عبدالله بن جلوي — كما سمعت عنه — لم يكن تابعًا، بل رجلُ اختار أن يكون خلف رجلٍ آخر، بكل إرادته ، وهو في نظري، أحد أوضح تعاريف "الولاء" في جزيرة العرب.

====================================

عقاب بن عجل

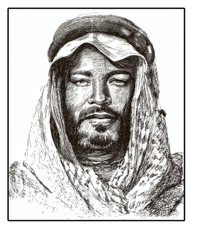
في مدوّناتي الأولى عن جزيرة العرب، كتبت عام 1901 في دفترٍ صغير كنت أحمله وأنا أقطع الوادي بين حائل وتيماء:
"لو سقطت إمارة آل رشيد اليوم، فلا شكّ عندي أن رجلاً واحداً سيبقى شاهراً سيفه حتى تغيب الشمس." ، كنت أجهل اسمه حينها، لكن بعد سنوات من السفر والتوثيق والمجالسة والمقابلات، عرفت أن ذلك الرجل لم يكن سوى عقاب بن جزاع بن عجل.

رجل من عبده، من شمر، ومن أعمدة إمارة جبل شمر، لم يكن مجرّد قائد ميداني ولا مستشاراً في الظل، بل وزير دولة بالمعنى الحقيقي للكلمة — عقلها المدبر، ولسانها المتزن، وسيفها وقت الشدة ، كان من رجالات محمد بن عبدالله الرشيد، المعروف بلقب "المهاد"، الذي حكم بالإتزان والعدل، ثم من خاصّة عبدالعزيز بن متعب الرشيد، الشهير بلقب "الجنازة"، والذي كان خاله. وفي عهد الاثنين، كان عقاب حاضراً، مفكراً، مخططاً، ومقاتلاً، وصاحب كلمة مسموعة داخل القصر وخارجه.

شارك في ملاحم مثل الصريف، عروى، أم العصافير، كما نُقل إليّ أنه كان من قادة الحملة في معارك أنور باشا ضد القوات البريطانية في الجنوب، وهو ما يفسر الأوسمة العديدة التي نالها لاحقاً، سواء من العثمانيين أو من أصدقاء الحلفاء القدامى، لكنه، رغم كل هذا، لم يكن رجل سلطة يُغريه الترف، ولا محباً للأضواء.
كان من أولئك الرجال الذين يرفعون راية لا تُنكس، ويقاتلون لا لأنهم يحبون الحرب، بل لأنهم لا يتحملون السقوط صامتين ، وحين سقطت الإمارة، وسقطت معها آخر قلاع الرشيد، كان عقاب - حرفياً - الرجل الأخير الواقف. لم يهادن، لم يبع، لم يلتحق بأحد، بل قاتل كما يُقاتل الذئب الجريح، حتى خرج للعراق حيث استقر لدى فرع الجربا من شمر، محتفظاً برأسه مرفوعاً، وتاريخه نظيفاً.

قابلت رجلاً ممن جاوره في منفاه، وحدثني عنه:
"كان يلبس شماغه مقلوباً إن غضب، ولا يرفع بل يجلس ساكتاً يفكر"
أعترف أني شخصياً شعرت بانبهار بهذه الشخصية. فهو لا يشبه ساسة الرياض، ولا قادة دمشق، ولا ولاة البصرة، بل كان فصيلة قائمة بذاتها ، مزيجٌ نادر من الحكمة والحدّة، من الشجاعة والعقل، من الوفاء والتواضع.

عقاب بن عجل لم يكن مجرّد فرد في تاريخ شمر، بل كان رمزاً للاستمرارية. رمزًا لرجل بقي واقفاً حين سقطت الدولة، وصادقاً حين كذب الجميع، ومخلصاً حين خان غيره ،وإني، وأنا أكتب هذا بعد أكثر من ثلاثين عامًا من بداية تدويني، أقول بثقة:
لو خيّرت أن أختار رجلاً واحداً يُجسّد معنى الولاء في هذه الأرض، لاخترت عقاب بن عجل دون تردد.


رسمه لـ عقاب ابن عجل

ملاحظة للمطّلع والمؤرخ:

إن إدراج سيرة الشيخ عقاب بن جزاع بن عجل في هذا الكتاب لا يُقصد به التمجيد السياسي ولا إعادة إحياء رموز لم تعد قائمة، بل هو توثيق علميّ لتاريخ الرجال الذين كان لهم أثرٌ في تشكيل معالم هذه البلاد، سواء تحت راية إمارة شمر أو غيرها.
ولئن كان التاريخ ملكاً للجميع، فإن ذكر عقاب بن عجل هنا هو واجب توثيقي تجاه شخصية لعبت دوراً جوهرياً في مرحلة مفصلية.
ولا يُفهم من هذا التضمين أيّ تعارض مع الدولة السعودية الحالية ولا رموزها، التي أكنّ لها الاحترام، والتي تشرفت بلقائها في مناسبات عديدة، وعلى رأسها جلالة الملك سعود بن عبدالعزيز آل سعود، حفظه الله.

===

تركي بن صنهات بن حميد

خلال إحدى إقامتي في الطائف، في صيف العام 1926، كنت ضيفًا على أحد أعيان المدينة حين دار الحديث في إحدى الليالي الطويلة عن تركي بن حميد. تحدث عنه الحضور بشغف، وكأن الرجل لا يزال يخيّم على ذاكرة نجد كما يخيّم السراب على أطراف الصحراء. لم أكن قد دوّنت شيئًا عن هذا الشيخ آنذاك، لكن حديث أولئك الرجال أنار لي بابًا في التاريخ، بابًا يقف خلفه رجل ذو سطوة قبَلية وشاعرية نادرة، وفروسية تُذكّر برجال الجاهلية ، وُلد الأمير تركي بن صنهات بن حمد بن حميد الكريزي المقاطي العتيبي في وقتٍ كانت فيه قبائل عتيبة تستقر على تخوم الحجاز، تخوض صراعاتها، وتحفظ توازناتها في منطقة تشهد مدًا وجزرًا بين القوى المحلية، وبين بقايا التأثيرات العثمانية والحملات المصرية ، ولم يكن اسمه الحقيقي "تركي"، بل صيّال، إلا أن كنيته غلبت حتى طغت على اسمه، وهذا أمر شائع في أعراف البادية.

ورث تركي المشيخة عن أبيه صنهات، ليصبح الأمير الخامس من آل حميد، وهي الأسرة التي لطالما كانت من أعمدة عتيبة. وقد سبقه في الزعامة عمه هندي بن حميد، الذي تذكره الوثائق المصرية ضمن شيوخ الحجاز عام 1255هـ (1839م)، مما يدل على حضورهم السياسي في المنطقة في ذلك الحين ، أما الظهور الأول للأسرة في السجلات السياسية فيعود إلى عام 1217هـ، حين شارك أحد آل حميد في وفد رسمي بعثه شريف مكة لمفاوضة الإمام عبدالعزيز بن محمد آل سعود في الدرعية. وهو مؤشر واضح على قدم الدور السياسي لهذه العائلة ، ومع ذلك، فإن أعظم مأثرة تُنسب لتركي بن حميد ليست قصيدة، ولا غزوة، بل نقل قبيلة ،فقد استطاع تركي بن حميد، بعزمه وقوة كلمته، نقل جزء كبير من قبائل عتيبة إلى نجد من أراضيها القديمة في الحجاز، وهو أمر لم يكن سهلاً في ذاك الوقت، خاصة في ظل سيطرة قحطان بقيادة الشيخ محمد بن هادي بن قرملة على اجزاء صغيره شمال غرب نجد.

كانت عتيبة في كل عام، حين تهب نسائم الربيع، تنزل من جبال الحجاز إلى بطاح نجد ، بعد الاستئذان التقليدي من ابن هادي، الذي كان يرحّب بهم في الغالب ،لكن ما حدث في أحد الأعوام كان مختلفًا ، دخلت سرايا من عتيبة إلى نجد قبل الاستئذان. فغضب ابن هادي، وطلب منهم الرجوع ،ذهب تركي بنفسه لمفاوضة الشيخ القحطاني الكبير، إلا أن اللقاء لم يسفر عن مصالحة. وعاد الأمير العتيبي إلى قومه، وفي صدره نار ورجاء مكسور .

لقد بدا لي - وأنا أجمع قصص تركي بن حميد من كبار السن في الطائف - أن الرجل لم يكن مجرد قائد قبلي، بل قائد فكريّ، غيرّ طريقة تعامل القبائل مع الجغرافيا والسياسة.
كان يتحدث بالشعر كما يتحدث بالقوة، ويوازن بين المجد القبلي والرؤية البعيدة.

==

سعد ابن ثنيان

لم يكن الشيخ سعد بن ثنيان بن دهيثم السهيل الزميلي الشمري رجلاً يُحكى عنه في المجالس فقط، بل كان موقفًا متحركًا، يمشي على الأرض، ويصنع من الأفعال أعلامًا ترفرف فوق أسماء القبائل.

من أسرة الثنيان، أحد أعرق بيوت الزميل من شمر، بزغ نجمه في زمن تداخلت فيه سلطة الدولة العثمانية مع سلطان القبائل، واشتدت الحاجة إلى رجال ذوي حزم ودهاء وولاء لا يتزحزح. لُقّب بـ"شيخ سبع الجموع" لأنه كان يشيخ على سبعة فروع كاملة من عشيرة زميل، وهذا في حد ذاته، في معايير البادية، مسؤولية لا يحملها إلا رجل له هيبة بين الأقران، وذكاء بين الخصوم، وكرم بين الفقراء ،إحدى أشهر الوقائع التي وصلتني بالتواتر في مجالس كبار السن في بادية نجد، وتكررت تفاصيلها بشكل شبه مطابق بين الرواة، هي تلك الحادثة مع ابن وتيد، المندوب العثماني المكلف بجمع "الجزية" أو الإتاوة من سكان البادية. ذلك الرجل الذي لم يرعَ حرمة لشيخ ولا مسن، حتى أنه طلب إتاوة من امرأة عجوز لا تملك إلا قليلاً من السمن. أمهلها أيامًا لجمع المطلوب، وهي لا تملك مالاً ولا إبلاً ولا بنين ، فزع لها الزميل، واجتمع كبارهم في مضيف الشيخ سعد. هناك، في ليلٍ ساكن، والرجال يتداولون الكلمة تلو الأخرى، قطع سعد السكون قائلاً:
"أتحبّون أن أُعفيكم من همّه وأكون أميركم؟"
فردّوا بلا تردد:
"وأنت كذلك، فافعل."

طلب من العجوز أن تسخّن السمن حتى يغلي، ثم حمل القدر في يده، ودخل مجلس ابن وتيد بكل ثبات. سلّم، فردّ المندوب العثماني السلام بتعالٍ. وقبل أن يُتمّ جملته التالية، انسكب القدر عليه، سمنًا يغلي، حارقًا جسده حتى الموت ، لم يكن ذلك الفعل مجرد انتقام، بل إعلان استقلال... لا بالخطابة، بل بالأفعال ، بعد تلك الحادثة، عُرف سعد بأنه الرجل الذي لا يُمتحن، ولا يُهدد، ولا يُباع. وأنشأ بلدة تُدعى الحُفَيْر قرب حائل، لتكون مركز حكمه وموطن قومه، ولتبقى شاهدة على عصرٍ كانت السيادة فيه تُكتب بالدم، لا بالوثائق.

ما أذهلني في شخصية سعد بن ثنيان، ليس عنفه، بل حسه العميق بالعدالة، وفهمه لكرامة قبيلته كامتدادٍ لكرامة كل فرد فيها. لقد مثّل روح القبيلة بأصدق صورها، وكأن دمه قد تشكّل من نخوة الأجداد ودهاء الحاضر ،لم يكن فارسًا يهوى المعارك، بل فارسًا تفرض عليه المواقف أن يُصبح سيفًا بيد العدالة حين تغفو الدولة. لو كان هذا الرجل في بريطانيا، لعلّقوا صورته في البرلمان.



رسمه لـ سعد ابن ثنيان

==

سهيب بن حزام

حين كنتُ في شمال نجد، بين جدران مزارع مهجوره في بلدة قفار، سمعتُ أول مرة باسم يُتداول همسًا لا جهرًا. كانوا يتجنبون النطق به كاملاً، فيكتفون بلقب أو إشارة، كما لو أن الاسم يحمل لعنةً قديمة. سهيب بن حزام الشمّري... اسمٌ لم يكن مجرد رجل، بل كان شبحًا، فكرة، رعبًا يجول في ظلال الطرق الرملية وفي دهاليز السياسة القبلية ، كان طويل القامة، عريض المنكبين، يكسو جسده ثوب أسود دائمًا، لا يخلعه في الصيف ولا الشتاء، وكأن السواد هويةٌ لا لباس. يُقال إنّه حلق ذقنه طوال عمره، لكن شاربه كان كثًا جريئًا، مثل سيف يعلو فمًا لا يعرف المجاملة. وُلد يتيمًا، فربّاه خاله على مزيج من الصمت والقسوة، وكان من أوائل من علّموه أن لا سلطانَ فوق إرادته ، سمعت من شيخ عجوز في مجلس بطرف حائل أنه كان إذا دخل مجلسًا، خفتت الأصوات، لا احترامًا بل توجّسًا، فالرجال كانوا يخشونه كما يخشى البدوي المطر إن صاحبه بردٌ ورياح.

لا يمكن تسميته "قاطع طريق" فحسب، فالرجل لم يكن يسعى للغنيمة، بل للفوضى. كان يقتل ضباط الدولة العثمانية في قوافلهم الرسمية، يهاجم القوافل البريطانية إن رآها، يخرّب غارات ابن رشيد إن لم ترُق له. أذكرُ أنّ أحد من كانوا ضمن حاشية ابن سعود أخبرني — بعد تردد طويل — أن سهيبًا ذات يوم أحرق ثلاثة بيوت تابعة لابن سعود في أطراف القصيم "لأنه لم يُعجبه نَفَس السياسة الجديدة" ، مرةً، هاجم قافلة عثمانية بالقرب من آبار الحويط، قَتل رجالها، أحرق وثائقهم، وسرق صندوقين من الذخيرة. لم يأخذ كل شيء، بل أبقى ما يكفي لأهل قفار، يُقسمه عليهم كما لو كان حاكمًا غير معلن. حمل سيفًا أسماه "دحّام"، لا يُشهره إلا على من يراهم أهل ظلم أو طغيان. وكانت بندقيته العثمانية رفيقته الثانية، يتفنّن باستخدامها ويزعم البعض أنّه كان لا يُخطئ الطلقة.

ما أدهشني — وأعترف بذلك بصدق المُندهش لا المتحامل — هو أنه لم يكن يُقاتل لأجل قبيلة، ولا راية، ولا رغبة في الحكم. بل لأجل شيءٍ لا يقدر أحد على تسميته. كان سهيب فوق الأطر، خارج التصنيفات. يتحالف مع شيخ إن أراد، ثم يختفي كمن لم يكن ، وقد اختفى بالفعل. سنة 1904، بعد أن شُنّت عدة حملات سرية في الصحراء بحثًا عنه، انقطع خبره. بعضهم يقول إنه قُتل، وبعضهم يقول إنه عبر إلى العراق، بينما يزعم آخرون أنّه لا يزال حيًا، لكنه لا يريد أن يُرى ، في اعتقادي، وربما أكون مخطئًا، أن سهيب لم يكن يُخطط لشيء إلا ألا يُسيطر عليه أحد. وهذا النوع من الرجال نادر... ومرعب.

لم أعرف رجلاً - أو شبحًا - أثار في نفسي هذا الكم من التناقض مثل سُهيب بن حِزام الشمّري. كلما سمعت عنه، ازددتُ قناعة أنني إن قابلته فلن أخرج من اللقاء كما كنت ، كنتُ أتخيّله في لياليَ معسكراتي ببادية الجوف، حين يصمت الليل وتنبض النيران وهمس البدو، أراه في ذهني قادمًا من عتمة التلال، يمتطي فرسًا سوداء مثل سُترته، يمشي بخطى الملوك لا المتسللين. رجل لا ينتمي لزمن، كأن الرمال نسجته من غضب قديم ، سألت عنه مرارًا، تمنيت أن أراه، بل سعيتُ خلف خيوط تشي بمكانه. أردت أن أجلس معه، أن أفهم عقله. لم أكن أريد إقناعه بشيء، ولا استمالته نحو بريطانيا أو غيرها. كنتُ أريد فقط أن أرى رجلاً يُقاوم كل مفهوم عن الدولة والانضباط والنظام، ويظل حرًا كريح الربع الخالي، غير مُدان ولا مُقيّد ، في بيئتي — في أكسفورد — كنا نؤمن أنّ الحرية هي محصلة العقل والرقي والنظام، أما هنا، فسهيب جعلني أرى الحرية في أبشع تجلياتها وأجملها: الفوضى التي لا تُفسَّر، لكن لا يمكن إنكار حضورها.



رسمه لـ سهيب بن حزام

==

مشعان بن هذال

إنه لأمرٌ يُدهش العقل البريطاني، أن ترى رجلاً من الصحراء يملك من الحكمة ما يتجاوز بها وُزراء أوروبا، ومن الكياسة ما يكسف به دهاء الشوام والترك ،عرفتُ عن مشعان بن مغيلث بن هذال كما تُعرف الخيول الأصيلة في شبه الجزيرة، لا من فم رجل واحد، بل من أفواه عدة، من عراق البادية إلى عمق جزيرة العرب، كلهم يرددون اسمه بخشوع تارة، وبفخر حذر تارَة أخرى ، مشعان لم يكن مجرد فارس - لقد كان سياسياً بالفطرة، شاعرًا في لسانه، أميراً فيَ حضوره، وبدَويًا صرفًا في طبعه. لم يكن بحاجة إلى ورق مختوم ولا لقب سلطاني؛ كان لقبه على رؤوس الرجال، وطاعته في قلوبهم، وهيبة سلالته في ظلال سيفه ،بلغني أنه في إحدى الليالي، قدّر أن تصطدم أطماع الحكّام بحُكم رجل الصحراء. أتى وفدٌ من عباس باشا، والي مصر، يعرض مبلغًا خرافيًا - خمسة وعشرون ألفًا من العملة الفضية - في مقابل فرس من نسل الكحيلان كروش، فرس لا تُقدّر بثمن لدى أهل البادية. وفي ذات الليلة، جاءه رسولٌ آخر من البحرين يطلب الفرس ذاتها، لا بثمن، بل كـ"هِبة صداقة".
وهنا تتجلى براعة مشعان...
لقد أدار الأمر كما يدير الملك مجلسه: لم يُحرج الضيف، ولم يخن طبعه العربي. استشار القوم لا ترددًا، بل ليعلّمهم الحكمة. ثم في الصباح، نزل إلى الضيوف وقال كلمة لا تُنسى: «هي لكم يا آل خليفة، نسبكم أقرب، ووجوهكم أحب».

لم يكن هدفه ذهب مصر، بل ذهب الذكرى، وها أنا الآن، وأنا أكتب هذا في خيمتي عند حافة "الخرار"، أستحضر ذلك الموقف، وأتساءل:
كم مشعان نحتاج، لا ليكونوا قادة، بل ليُربكوا معادلات الشرق كما أربكها هذا العربي؟

في البحرين، أراد السوق بأكمله أن يهديه، لكنه لم يطلب غير مملوك واحد أعجبه منظره. لا لأجل سلطة، بل كرمز للهيبة. وعندما رفض الحاكم طلبه، لم يغضب، بل قبل مملوكينَ بديلين... وأبحر، لا كسيد، بل كأسطورة ، مات مشعان في الشماسية، لا كضحية، بل كرمز ، وفي رأيي، لو كان مشعان بين ظهرانيّ الإنكليز، لكان وزيراً للسيادة الخارجية، أو حاكماً مستعمراً لإفريقيا ، لكن البادية أنجبته، والبيداء احتوته، واسمه - كالعطر في ثوبٍ نظيف - لا يزال يعلق على لسان كل من عرف الفرق بين الكرم السياسي، والاستسلام المُذل.



رسمه لـ مشعان بن هذال

==

مقدمة المترجم

بقلم: د. ناصر بن عبدالرحمن الطيّان

وجدت بين أوراق محفوظة في أرشيف جامعة أكسفورد، تحت تصنيف: Private Papers of H. St. John B. Philby، مسوّدة غير مكتملة لكتاب ميداني لم يُنشر من قبل، دوّنه المستشرق البريطاني المعروف عبدالله (هاري سانت جون) فيلبي خلال إحدى رحلاته إلى شمال الجزيرة العربية في مطلع القرن الرابع عشر الهجري.

وقد بدا واضحًا أن النسخة الأصلية من هذا الكتاب - والتي لم يُعن المؤلف بإعادة تحريرها - كانت مسوّدة أولية غير معدّة للنشر، يطغى عليها الطابع الشخصي والميداني، كما أن نحو تسعين صفحة منها فُقدت أو تلفت، مما اضطرني للاعتماد على النسخة المصغرة الوحيدة المتبقية في أرشيف الجامعة، والمكتوبة بخطّ رديء ومهترئ في أجزاء كثيرة ، وبالنظر إلى تلف عدد كبير من الصفحات، وغموض تعبيرات كثيرة، وتعذّر فهم بعض الجمل بسبب الأسلوب الشخصي والاختزال الحاد في التدوين، فقد رأيت ـ بوصفي محررًا ومترجمًا لهذا النص ـ أن أعيد بناء المعاني بما يراه السياق مناسبًا، دون أن أخرج عن الجو العام للنص الأصلي أو أُقحم ما لا صلة له بالمحتوى.

أما سبب عدم نشر هذا العمل في حياة فيلبي، فليس ثمة ما يؤكده تمامًا، إلا أن الظن الغالب ـ بحسب مراسلات متفرقة وردت في أرشيف فيلبي الشخصي ـ أن هناك تحفظًا رسميًا من قِبَل الحكومة السعودية آنذاك، وربما الملك سعود نفسه، على بعض ما جاء في المخطوطة، وقد أعقب ذلك توتر سياسي بين الطرفين انتهى بإبعاد فيلبي من الظهران إلى بيروت في إحدى أكثر الحلقات غموضًا في تاريخه الطويل مع الجزيرة ، لا يمكن القطع بصحة كل ما ورد في هذا النص، ولا الادعاء بتمثيله الدقيق للواقع، لكنه يظلّ وثيقة نادرة تُسجّل جانبًا من انطباعات رجل مثير للجدل، عاش في قلب التحولات، واحتكّ بالقبائل وأعيان الجزيرة، ودوّن مشاهداته بعين أوروبية متوغّلة في الرمال.

هذه الترجمة هي محاولة لإحياء ذلك الصوت، رغم الشروخ.

الدكتور ناصر بن عبدالرحمن الطيّان

==



للمستشرق / هاري سانت جون فيلبي
ترجمة / د. ناصر بن عبدالرحمن الطيّان

1901 - 1931